

بحث الشهر أهل الكهف

نقد هدي لمرحمة ترضيه الحكيم
نقدمه عبدالحق فاضل

ولإن هذا الحق إذا اردت ان تشيد مثل « هامت » ..
سأجعل نقدي لأهل الكهف موضوعياً ، مجرداً من كل ما من شأنه ان
يثير الخلاف بين النقاد مما تحتكم فيه الأذواق والأهواء.. وسأفادي من مناقشة
الآراء الفلسفية التي يكثر من عرضها الاستاذ توفيق في هذه المسرحية ..
وسأقتصر على معالجة النواحي التي يصح فيها تطبيق مقاييس للنقد ثابتة يمكن ان
يتفق عليها ذوو العقول فيما يخص تأليف المسرحيات .

المهيكل

موضوع مسرحية « أهل الكهف » مقتبس من اسطورة
تقول انه كان في غابر الزمان ملك في مدينة طرسوس ادعى
الربوبية وحمل الناس على عبادته ، فعصم الله وزراء الملك من
هذا الكفران وأهمهم الهداية والايان . فلما علم الملك بذلك همّ
بقتلهم ففرّوا ، وقادهم راع الى كهف يعرفه فناموا فيه مع
الراعي وكلبه نحواً من ثلاثة قرون . فلما افاقوا وعلموا انهم
رقدوا كل هذه الاحقاب الطوال قالوا ما لنا بالحياة حاجة ،
ودعوا الله ان يعيدهم الى رقدتهم فقبضهم اليه .

فالحكاية اذن دينية ، اولها معجزة وآخرها معجزة ،
وشخصها قديسون جوار الله احب اليهم من الحياة . وهي
قصة كما نرى متسقة لا تناقض فيها .. قصة دينية لا مجال للمناقشتها
بالمناطق ، كان على الاستاذ الحكيم ان يأخذها كلها ، او يتركها
كلها ، او يحولها الى قصة دنيوية .. كلها .

فما الذي فعل ؟ انه قبل الدين اساساً للحكاية ، فجعل علة
لجؤهم الى الكهف هو فرارهم من وجه الملك لخروجهم عن
دينه ، وقبل المعجزة علة لتوسمهم ثلاثئة عام ، ثم عاد بعد كل هذا
فمنقل القصة ، على حالها هذه ، من حوزة الدين الى مسرح الدنيا .
كان منتظراً من اولياء الله هؤلاء ، الذين عرضوا حياتهم
لخطر القتل من فرط ايمانهم وتقواهم ، والذين خرق الله من اجل
حمايتهم نظام الكون فصنع لهم تلك المعجزة الفريدة فأناهمهم

فلما سرني كتاب وأمتني بمقدار ما سررتني وأمتنتي مسرحية « أهل
الكهف » يوم قرأتها وأنا تليد سنة ١٩٣٤ . كم مرة قرأتها ؟ خمس
مرات .. سبع مرات .. لا ادري والله .. ربما اكثر من ذلك . استهوتني
براعة الحوار وطرافته فطربت . خيل لي يوماً ان ذلك الحوار أجود شيء
من نوعه .. أجود حتى من « تاجر البندقية » و « يوليوس قيصر » ، ولم
اكن حينئذ قرأت غيرها لشكسبير .

ولكني بالرغم من تلك النشوة التي كانت تعمري بها براعة الحوار كنت
اسائل نفسي : لم كان مشلينيا ومرنوش على هذا الضعف من الايمان بالله
والمفروض انها قديسان ؟ لم عاد أهل الكهف الى الكهف ليموتوا ؟ ما معنى :
« القلب أقوى من الزمن ؟ .. » واشباه ذلك من اسئلة . مع هذا كنت اذا
عدت الى قراءة المسرحية جرفتي النشوة من جديد .

اني مقبل الآن على نقد « أهل الكهف » تقدماً صارماً لا محاباة فيه ، فقد
زالك الآن تلك العشاوة عن عيني بعد ان قرأت ما اخرج الاستاذ توفيق
الحكيم بعد ذلك من مسرحيات وبضعاً وعشرين مسرحية ممتازة معظمها لشكسبير
وبرنارد شو ، وتبدى لي فضل هذين العملاقين ..

لقد قوبلت « أهل الكهف » يوم صدورها بعاصفة من الترحاب والاعجاب ،
وما كان أخلقها بذلك في امة ليس لها تالد ، وليس لها إلا طارف متواضع
جداً ، من المسرحيات . ولكن ، أما آن اليوم وقد مضى على صدور « أهل
الكهف » عشرون عاماً شبت خلالها اطراء وحفاوة .. أما آن ان تنقد ؟

ما زال الاستاذ توفيق الحكيم مذ اخرج « أهل الكهف » متفرداً على
عرش المسرحية العربية لا يدانية احد من المؤلفين ، وتلك مفخرة ستذكرها
له الاجيال .. بيد ان هذا التفرد جعل الاستاذ توفيقاً يتطرس ويتأله ،
ويكثر من الحديث عن الابداع ، وعن الخلق .. حتى بات ينظر احياناً الى
مخلوقات الله وكأنهم من مخلوقاته . يتجلى هذا على الأخص في كتابه « فن
الأدب » .. وقد عقد فيه فصلاً ضافياً في « ادب المسرح » يخيل لي انه لم
يحاول فيه غير شيئين : احدهما اخافة بني آدم من الاقدام على تأليف المسرحية ،
وثانيها الاشادة بعبقريته نفسه في تأليفها . لقد طفق يفتن في وصف العقبات
التي تعترضك إذا انت سوسل لك الفرور ان تقتحم الطريق ، ويجدتك عن
نفسه كيف كان يقضي الساعات الطوال حيال نص يقلب فيه « منقباً عن اسرار
تأليفه ومفاتيح تركيبه » .. ويهوس عليك شأن الفن المسرحي « الذي يصمد
كالصخرة في طريق الفنان ، فما يزال به يعالجه بالصبر والكمد المضي حتى يفجر
منه الماء السلسيل » .

لكنه يريد ان يوهمك ان بناه هرم خوفو اسهل عليك من بناء مسرحية ،

ثلاثة قرون .. كان منتظراً منهم ... اما كان منتظراً منهم حين افاقوا لأنفسهم ان يسبحوا بحمد ربهم ويذكروه طويلاً ؟

انهم لم يفعلوا ذلك ، وانما جعل الوزيران يجدفان في حوار بارع على الله ، ويتشاجران فيما بينهما ، حتى ضاق بها ثالثهما الراعي . واذا بكمية الايمان التي يمتلكها لا تبرر معجزة نومهم ثلاثة قرون ، ولا حتى قرنين اثنين .

وخرج القديسون الكفرة من الكهف وكل منهم بنشد ضالة له دنيوية . وبينما يستقبلهم ملك العصر الذي ظهروا فيه على انهم قديسون اذا برونوش يستجدي نقوداً منه يشتري بها هدية لطفله الذي يتوم انه ما زال موجوداً ، ومثلياً يريد ان يخلق ويتزين ليقابل حبيبة قلبه . حتى يليخا الراعي ، وهو أشدم ايماناً ، ذهب يفتش عن غنمه .

ولم يخطر لواحد منهم ان يدخل كنيسة او يتلو آية من الانجيل او يذكر في محنته آلام السيد المسيح ، للتأسي به على الاقل . وتجوس خلال المسرحية كلها عسك تجد لهؤلاء القديسين أثاراً من قدسية فلا تجد . انهم لم يبدوا حتى عن سرورهم بانتشار دينهم الذي كادت تناف انفسهم في سبيله ، ولم يحاولوا ان يتفهموا مدى ما احدهم هذا الدين الجديد من صلاح في شؤون الدنيا .

الحق اني ما رأيت في قصة معروفة ، مسرحية او غير مسرحية ، تناقضاً صارخاً أشنع من هذا . يقودك الاستاذ توفيق الحكيم الى معبد للصلاة تدخله معه متوقفاً ان ترى فيه المحارِب والمصلين المتبتلين ، فاذا هو يريك في هذا الركن القديس روميوا راكمأ بين يدي جوليت يطارحها الغرام ، وفي تلك الزاوية قديساً ثانياً نسي الله من فرط اشتغال باله بطفله وخليته فاذا ذكر الله لم يذكره الا متسخطاً مزدرباً ، وفي ذلك المحراب قديساً آخر مؤمناً حقاً يبحث عن دراهم له معدودات .

هذا التناقض لما رآه المسيح لم يطق عليه صبراً بالرغم من كل حمله وسعة صدره . وجد اليهود قد اتخذوا من الهيكل سوقاً للتجارة ومباة الربا ، فثار ثورته المشهورة وقلب الموائد اطاح بالنقود وهو يوجههم ان جعلوا الهيكل مغارة للصوص وهو معبد للصلاة . وبالرغم من كل حرص اليهود على المال وتطاولهم على المستضعفين لم يجرؤوا ان يقاوموا المسيح وهو وحيد لا ناصر له ، لأنهم شعروا شعوراً عميقاً بفداحة التناقض الذي افترقوه ، فخرسوا .

كل هذا كان الاستاذ توفيق الحكيم قادرأ على اجتنابه لو أنه القى على نومة ابطاله المديدة ستاراً ولو رقيقاً من التأويل العلمي ، إذن لقلنا انه لم يقصد من اقتباس الاسطورة إلا استبخدام مبادئها الخام ليصنع منها صنيعاً . والواقع ان المؤلف

حاول التأويل فنوّه على لسان احدهم ان الله إنما انامهم كرامة لايمان الراعي يليخا . ولكن هذا تأويل لا يستقيم مع منطق الدنيا ولا معجزات الدين ، لأن الوزيرين هما اللذان كانا هاربين يطلبان الحماية لافتضاح ايمانها بالدين الجديد على حين كان الراعي آمناً على نفسه لم يبطّل واش على كنه عقيدته ، فلا داعي لاتخاذ هذا المؤمن التقى دريئة لوقاية كافرين بمعجزة لم يظفر بها اولو العزم من الانبياء . كذلك اكتشف يليخا « أن الحرارة والضوء لا يدخلان اليانا منه - اي باب الكهف - كأننا الشمس تميل عنه في ذهابها وايها » كما جاء في القرآن . ولكن هذا التأويل يؤكد المعجزة ، فهو من ثم يزيد الطين - الذي تورط فيه الاستاذ توفيق الحكيم - بلة !

وفي ختام المسرحية يعمد المؤلف الى شخوص روايته فيجمعهم واحداً واحداً ويعيدهم الى قرارة الكهف الذي منه اخرجهم ، ولا ينسى ان يعيد معهم الكلب قطميرا ، كما في الاسطورة الدينية . . كأنه لاعب الشطرنج يفرغ من اللعبة فيعيد حجارتها الى العلبة . ولكنه إمعاناً منه في التناقض ، لا يعيدهم لسبب ديني ، بل لسبب دنيوي ، هو ان كلاً منهم خابت له امنية دنيوية فعاد الى الكهف . واضرب عن الحياة حتى مات . . من باب الانتحار . . وتلك معصية يحرمها الدين اي تحريم . . ارتكبتها القديسون . . حتى الراعي الورع يليخا . . وحتى الكلب الاعجم قطميرا !
فيا لهذا الهيكل المتداعي . . شاده الاستاذ توفيق الحكيم . .
لهذه المسرحية العجيبة .

الشخصيات

اما شخوص الرواية فأمرهم اعجب . اهل الكهف ثلاثة رجال كأنثافي القدر ، كلهم له دور رئيسي في القصة . حتى الكلب كان يستطيع الاستاذ المؤلف ان يعهد اليه بدور مستقل . ولكن انسى يحق لنا ان نتوقع دوراً مستقلاً لحيطان اعجم في مسرحية ليس فيها مثل هذا الدور المستقل لاحد من فرسانها الثلاثة ، البشر ؟

ان ايسر فواعد الفن المسرحي ، التي يتفطن لها كل من يقرأ بضع مسرحيات جيدة ، هي انه يجب ان يكون لاباطل المسرحية شخصيات متباينة . ولقد تفطن الاستاذ الحكيم الى الفرق بين شخصية هاملت وهو أشقر اخو اناة وتبر ، وشخصية عطيل وهو اسود فيه تسرع واهتياج ، واستنتج ، وكأنه اكتشف كنزاً ، ان شكبير لو وضع كلا منها مكان صاحبه لفسدت المسرحيتان . « هاهنا إذن عبقرية شكبير . انه قبل ان يخلق المأساة او

الكارثة خلق الشخصية التي تصنعها .. وقبل ان يخلق الشخصية .. خلق الطباع التي لا بد ان يصدر عنها تصرف الشخصية .. هكذا قال توفيق الحكيم (١) ولكن ما اسهل ان نضع ابطال الحكيم بعضاً في مكان بعض . وضع مرنوش مكان اوديب الملك ، وضع مشلينيا مكان قمر شهرزاد ، وضع بليخا صياداً في مكان صياد سليمان الحكيم - وانا اضمن لك ان تناسب المياه في مجاريها ، منحدره في خط السير الذي رسمه لها المؤلف الحكيم ، من اول الحكاية الى آخرها .. تبدأ بالبداية نفسها وتنتهي الى النهاية نفسها .

وي ! أهو شكسيير الذي خطر لمؤلف اهل الكهف ان يغير مواقع اشخاصه ؟

ويقول الاستاذ توفيق متحدثاً عن نفسه كيف كان يدرس الفن في باريس : « أقضي الساعات الطوال امام نص من النصوص اقلب فيه منقباً عن اسرار تأليفه ومفاتيح تركيبه ، مستخلصاً بنفسه ولنفسه ملاحظات في طرائق التأليف المسرحي .. ذلك الفن العسير ، الذي احببته ايضاً لانه عسير .. » ٢ ايها الاستاذ ، يبدو انه ما زال عسيراً !

وما دام الحق احق ان يقال ، فاني اعترف هنا انه ليس من كبير ضير في امكان ابدال شخصية رئيسية في مسرحيته بشخصية مثلاً في مسرحية اخرى . ولكن الضير الكبير في امكان ذلك داخل المسرحية الواحدة . وان الاستاذ شكسيير ليأبى ذلك إياه شديداً . وفي لحة من لمحات عبقريته

نص على هذه القاعدة نصاً صريحاً لا لبس فيه . ففي مسرحية « يوليوس قيصر » بعد ان يرينا شكسيير ما بين كاسيوس وبروتس من فروق في الطباع وطرائق التفكير ، ويرينا كيف يفلح كاسيوس الماكر في إيفار صدر بروتس الفر على قيصر ويحرضه على قتله ، يقول كاسيوس هذا مخاطباً نفسه : « ان قيصر يكن لي البغضاء ، ولكنه يجب بروتس . فلو اني كنت الآن بروتس وكان هو كاسيوس .. لما استطاع ان يمتلني ا » فهل وقف الاستاذ توفيق الحكيم الساعات الطوال يا ترى امام هذا النص الصغير يقبل فيه منقباً عن اسرار

(١) فن الادب ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤١ .

تأليفه ومفاتيح تركيبه ، مستخلصاً بنفسه وملاحظاته في طرائق التأليف المسرحي .. ذلك الفن العسير ، الذي أحبه ايضاً لانه عسير .. ؟

اما ابطال اهل الكهف فلا تجد فيهم واحداً لا يستطيع ان يحل محل الآخر ، لانك لا تجد واحداً منهم يختلف عن الآخر . صحيح ان احدهم خرج من الكهف يطلب حبيبته ، وان الثاني خرج ينشد أسرته ، وان الثالث خرج يلتمس غنمه ، وان رابعهم ، الكلب ، خرج يطلب .. الحياة ! ولكن هذا ليس فرقاً بين اشخاص ، وإنما هو

فرق بين ظروف . حتى هذا الفرق بين الظروف وهي ظاهري ، ففي وسعك ان تصفهم طراً وصفاً واحداً بقولك ان كلهم خرج ينشد ضالة له . على ان شكسيير يأبى ان يعتبر الفرق بين الظروف فرقاً بين الشخصيات . او لم تر اليه كيف قال آتفاً ان العبرة بالشخصيات لا بالظروف ؟ إيذن لي يا صديقي القارئ ان أعيد عليك نص عبارة شكسيير العظيم لأضع يدك على سر من اسرار عبقريته . يقول كاسيوس : « ان قيصر يكن لي البغضاء ، ولكنه يجب بروتس . فلو اني كنت الآن بروتس وكان هو كاسيوس ، لما استطاع ان يمتلني ! »



توفيق الحكيم

فاذا وقفنا الساعات الطوال نبحث عن اسرار التأليف ومفاتيح التركيب ألفينا ان هذا النص الصغير ينقسم الى قسمين كبيرين ، في الأول منها يرينا

استاذنا الأكبر شكسيير الفرق بين (ظروف) بروتس وكاسيوس ، وفي الثاني يرينا الفرق بين (شخصيتها) . هذا هو (المفتاح) .. فاذا فتحنا الباب وولجنا تدعى لنا (السر) ، وهو ان هذين (الشخصين) لو تبادلا (ظروفهما) لمجز كل منهما عن ان يقوم بدور صاحبه .

ولو غيرت ظروف مكبت فجعلته يطمع في زوجة الملك او ماله لصدر عنه التصرف نفسه الذي صدر عنه حين طمع في تاجه ، ولسارت القصة بدافع من شخصية مكبت وطعمه الى النهاية المحتومة نفسها . أما لو وضعت بانكو ، او مكدوف ، او ملكولم ، او اي شخص من اشخاص المسرحية في مكان مكبت ، لاختلقت نهاية القصة من غير بد .. اذا لم يتناولها فلم الاستاذ توفيق الحكيم !

ان ابطال شكسبير كالدكتاتورين، اذا تغير احدهم تغيرت السياسة العامة في البلد، لان كلاً منهم يعبر عن إرادته وشخصيته . اما ابطال الاستاذ توفيق الحكيم فأشبهه بصغار الموظفين ، ليس لهم او عليهم سوى إنفاذ الاوامر . انهم لا يصدرون عن طبائعهم او إرادتهم، وانما تسوقهم وتسوق الاستاذ توفيقاً معهم الفكرة التي اختار ان ينفذها بواسطتهم . لقد جعل قديسيه كلهم يغادرون الكهف سعياً وراء لبانة دنيوية . . وجعلهم كلهم يخفقون في الظفر بالضالة المنشودة . . وجعل القنوط يركبهم كلهم ركوباً متشاهماً حين خابت امانتهم . . وجعلهم يعودون كلهم الى الكهف في ساعة واحدة ، واقتصد الساعة النفسية لا الزمنية ، لان كلاً منهم عاد الى الكهف في الساعة التي اقتنع فيها بخيبته . . وجعلهم كلهم ينتحرون بالاصرار على الاضراب عن الحياة . . وجعلهم كلهم يعيشون جياعاً في الكهف شهراً كاملاً قبل ان يموتوا . .

ايها الصديق ، اخشى ان تكون نسيت ان رابعهم قطميراً قد شار كهم حظهم في كل هذه المهازل المؤلمة ، فلقد والله عامله الاستاذ المؤلف بالضبط كما عامل كل واحد منهم ، فجعله هو الآخر يجيب امله في الكلاب لانها راحت تشمه « كأنه حيوان عجيب » ، فعاد حانقاً الى الكهف كما عادوا ، واضرب عن الحياة كما أضرخوا ، ولبت يقاسي الجوع شهراً كما لبثوا ، ومات معهم في الساعة نفسها التي فيها ماتوا . .

فهل بي حاجة بعد هذا ان اقول اننا لو وضعنا كلاً من الفرسان الثلاثة موضع الآخر لأغنى غناؤه وأدى دوره ، وقد رأيناهم جميعاً يؤدون دوراً واحداً؟ حتى رابعهم الكلب ، لو وضعته موضع مشلينيا لوجد ان بريسكا تشمه كأنه « بشر عجيب » ، ولانتحر من اجل هذا السبب الوجيه ، بالعودة الى الكهف .

ان الناس إذا تشابهوا في موقفهم من الحياة فانما يتشابهون في الحرص عليها والتشبث بها . اما من ينتحر بذلك الاصرار الطويل والجلد الحارق من جراء ضياع قطيع او ثكل طفل او هجر حبيبة فلا يمكن عده إلا من الشواذ . والشواذ قلة ، فمن اين جاء بهم هذا المؤلف الحكيم؟ وإذا تشابه (اربعة) من المهووسين مثل هذا التشابه المشؤوم، فمن البديهي انهم لا يصلحون ان يكونوا ابطالاً لمسرحية واحدة .

صدقني، لم أسف على احد من الفرسان الثلاثة بمقدار اسفي على باردليانهم الكلب . هذا الحيوان الأصيل ، العريق في الحيوانية ، بأي حق يتهمه

الاستاذ توفيق الحكيم بفساد الفطرة - كأنه بشر - ويرغمه على الانتحار مع ثلاثة قديسين زائفين؟

فرصة ذهبية أضعها المؤلف باسائه الى هذا الكلب الممتاز . فما اعرف قصة يمكن ان يمدد فيها بدور خطير لحيوان أعجم كقصة اهل الكهف. كان على المؤلف ان تجعله من دون اصحابه الثلاثة الحمقى يمثل ارادة الحياة الطليقة لا تقيدها تقاليد البشر واطاعهم ولا يضلها فساد افكارهم وعقائدهم - حين هب من رفدة طالت ثلاثة قرون ليستأنف حياته من جديد، غير خائف من ملك ، ولا مضمر لبانة ، ولا مكترث لحية . اني موقن يقيناً قاطعاً ان المؤلف لو اطلق الكلب على سجيته لبرهن من فورهِ على انه اعقل القوم ، ولراول حياته كسابق العهد كأن لم يكن شيء ، ولوطد لنفسه اواصر طيبة مع كلاب الحي ، ولأنجب ذرية صالحة تصل من نسله ما قطعته القرون . . عسى ان يكون للرجال في ذلك موعظة حسنة !

ولكن شاءت نظرية « الكل في واحد » التي دونها الاستاذ الحكيم على غلاف « عودة الروح » بدلاً من « اهل الكهف » - ان تطغى هنا طغياناً أثمياً فتصيب الكلب بشرتها ، واذا بالمؤلف الخلاق - جلست قدرته - يصبه في قالب واحد مع الفرسان الثلاثة ، ويقضي عليه . . مع ان المسكين لم يؤمن ولم يكفر ، ولم يبحث عن شيء ، ولا شعر بوطء القرون ، ولا خابت له امنية دنيوية ولا دينية . كل ما في الأمر ان الكلاب شتمته ، على زعم الاستاذ توفيق ، كأنه حيوان عجيب ، ظالماً وعدواناً .

ليت الاستاذ حانت منه التفاتة فنية ضئيلة فبهر لنا صبر الكلب شهراً كاملاً عن الطعام بان جعل يملخا يربطه بجبل ، او يسدّ دونه باب الغار ، او يقنعه بصحة نظرية « الكل في واحد » التي يدين بها الاستاذ الحكيم . ولكن لا شيء من هذا . . مع الاسف .

محاولة واحدة فرطت من الاستاذ توفيق الحكيم فرسم شخصية متميزة للراعي واعطاه ملامح خاصة به حين جعله يختلف عن صاحبيه بسذاجته وایمانه . ولكنه عاد فحقق هذه الصورة حين اخرجها من الكهف في طلب الدنيا ، ثم أعاده اليه . . كما اعاد سواه . . ليعصى الله بالانتحار ، عن قصد وسبق لإصرار . وحركة واحدة بدرت طبيعية من الفرسان الثلاثة لا ضير من تشابههم فيها لانها طبيعية، هي خروجهم الى الدنيا لاستئناف الحياة ، لولا ان ذلك يتعارض مع اول الحكاية لانهم دخلوا الكهف وناموا ثلاثة قرون ببركة الدين ، ومع آخرها لانهم عادوا الى الكهف . . عزوفاً عن الحياة .

ولئن كان ثمة اختلاف في الشخصيات فهو اختلاف كل منهم عن نفسه . انهم اهل دين الى حد الموت في سنيله ، وهم اهل دنيا

الفكرة

ننتقل الآن الى مغزى المسرحية، او فكرتها.

منذ اخرج الاستاذ الحكيم « اهل الكهف » حتى اليوم وهو يستنح كل فرصة ليزكّرنا بأنه إنما اراد في هذه المسرحية ان يعلمنا كيف يصارع الانسان الزمن.. ولكنني اقول الحق، ولو على نفسي .. اني حتى هذه الساعة لم اعرف اين، ولا متى، ولا كيف، صارع الانسان الزمن في هذه المسرحية. ولكن الذي رأته هو كيف فرّ الفرسان من وجه الزمن، على نحو لا يفعله عاقل.. ولا مجنون... وإنما يفعله احياناً بعض انصاف المجانين، او انصاف العقلاء هؤلاء الابطال الذين اخرجهم الحكيم من اعماق الماضي ووضعهم على المسرح ليعلمونا كيف يصارعون الزمن ما كادوا يلهجون جانباً يسيراً من وجه الزمن وقد جاءهم صديقاً لا عدواً، حتى جروا مقضياً عليهم..

الزمن العاتي الذي يطحن الافراد والأمم اراد مرة واحدة ان يخرج على مألوف عادته فيكون للانسان صديقاً، فقال لأهل الكهف: « تعالوا يا اطفالى. لقد اردت بكم خيراً إذ

وقع اختياري عليكم لتجربتي، فأغضت عيني عنكم لحظة قدرها ثلاثة قرون. وصيد يضاف الى اعماركم من حيث لم تحتسبوا، فضعوه في جيوبكم، واعرفوا قدره، وأروني كيف تنتفعون به. » فخيّل لكاتبنا المسرحي الاستاذ توفيق الحكيم ان الزمن يريد ان يصارعهم! فما كان منه إلا ان شتم لهم عن سواعدهم المقتولة، وهياهم للززال الخفيف، ونحن المتفرجين قد تعلقت أنفاسنا اهتماماً وتشوّفاً. وإذا بالابطال يهربون بأقصى سرعتهم الى الكهف، ويختبثون في بئر الماضي السحيق، الذي منه خرجوا!..

الى حد نسيان الدين من اساسه.. وهم طبيعيون يزاولون شؤون الحياة كغيرهم من الناس، وهم شواذ سوداويون يقدمون على الانتحار.. وهم جزعون لا يصبرون على مجابهة شدة في الحياة مامن انسان لم يجابه مثلها، وهم ذوو جلد خارق يصبرون شهراً بتمامه عن الطعام والشراب حتى يموتوا. فهل وجدت في مسرحية تكلفاً مثل هذا التكلف يبلغ الحد الأقصى من التعسف

في اخضاع الاشخاص، ومصادرة حرياتهم الاربع، وحرمانهم من كل ارادة في الحركة والتفكير؟ وهل رأيت انساناً يختلف بعضه عن بعضه كهؤلاء؟ ليت شعري، اين إذن الدرس الذي تعلمه توفيق الحكيم من شكسبير؟ واين ذهبت الساعات الطوال التي قضاها يقلب النصوص منقباً عن الاسرار والمفاتيح، مستخلصاً بنفسه ولنفسه ملاحظاته في طرائق التأليف المسرحي؟..

ذهن الاستاذ توفيق الحكيم، كذهن شكسبير، وكذهن كل اديب، مخزن يكتظ بشخصيات مفككة الأوصال.. مخزن تتكدس فيه الاعضاء بعضها فوق بعض بلا نظام. فاذا اراد شكسبير ان يخلق شخصاً لاحدى مسرحياته فمخزن ذا كرتة رأساً على عقب ليجد له الاعضاء المنسجمة المناسبة شكلاً ولوناً وحجماً ومادة. واذا اراد توفيق الحكيم ان يخلق شخصاً تناول

اول قدم تقع عليها يده من الكومة المكدسة، ليضع فوقها اول ساق، ثم يدق فوقها اول ركبة ويرغمها على الالتصاق حتى لتسمع احيانا صوت الدق العنيف. ألم تسمع صوت المطرقة حين دق الاستاذ المؤلف قلب مرنوش اليائس على جسم نابض بالحياة؟ ألم تسمع صوت المطرقة حين دق على جسم الكلب رأساً بشرباً قد امتلأ سخفاً؟ انه - اي صوت المطرقة - ليديوي في اذني!

هكذا يصنع توفيق الحكيم ابطاله، فاذا كل منهم يشبه الآخر في اضطراب شخصيته وتفككها. وليس فيهم واحد يشبه نفسه!..



بريشة الفنان رضوان الشهاب

اهل الكهف

أفهمكذا يكون صراع الزمن ؟

لولا تعسف الاستاذ توفيق الحكيم وتحكمه في هؤلاء المساكين لانطلقوا بعد الشهدة الاولى في مسارب العيش ، ولغمرهم من الفرح ما يغمر الصبي يقع على لعبة زائفة ، ولا نغمسوا في كل طريف شائق من متع هذه الحياة الجديدة العجيبة ، أما انفاس . كذلك كنت افعل انا لو كنت في مكانهم ، وكذلك تفعل انت أيها القارئ ، وكذلك يفعل توفيق الحكيم .

ولولا استبداد تلك الفكرة الملعونة ، فكرة مصارعة الزمن ، بعقل المؤلف لكان خليقاً به ان يرينا مخلوقاته يتلهفون ليعرفوا كيف تصرمت تلك الأحقاب وما جرى فيها من احداث جسام ... وكيف تطورت حياة الناس ولهجتهم وثيابهم وأداة معيشتهم ، ولم يتغير ما فيهم من لؤم وجشع .. ولتعجبوا لهذا الدين الجديد الذي انتصر انتصاراً ساحقاً كيف كان في اول امره ، أي في ايامهم ، جهاداً وتضحيات ومثلاً سامية فأصبح اليوم طقوساً وتراويل ، وبات ذريعة بيد الاشرار للصيد والاستغلال .. كالدين القديم . ولألا نفوسهم أماً ان دعاة الاصلاح والحق ما زالوا يقتلون ويضطهدون بدعوى الاحاد والافساد كما كانوا يقتلون ويضطهدون في ايام دقيانوس .. واأسفاه !

يخيل لي انه كان على المؤلف الحكيم ان يعالج هذا وأمثاله من الحقائق الاجتماعية والنفسانية الخالدة بدلاً من فكرة صراع الزمن ، التي كان يكفيها تنويه بسيط لا يستغرق إلا بضعة سطور . ان الاستاذ توفيقاً يشرح لنا في بعض مقالاته وجهة نظره في صراع اهل الكهف مع الزمن ، فيضرب لنا مثلاً من قدام المصريين ، ويقول انهم صارعوا الزمن بالتحنيط وانشاء الابنية الضخمة . ولكن هذا كلام معقول ..

كل الامم تكافح الزمن على هذا النحو فيحاول ابناءؤها ان يطيلوا اعمارهم بالأبنية والتماثيل او الصور او الكتب . فكانت النتيجة انهم لم يزيدوا اعمارهم طولاً وإنما زادوا بجملتهم حياة من بدم عرضاً وقد بذت المصريين بالتحنيط يحفظ الجثمان ليكون صالحاً للحياة متى عادت اليه الروح فيستأنف العيش من جديد . وهذا بالضبط هو الشيء الذي أبى الفرسان الثلاثة وبارديانهم ان يفعلوه . حنطتهم المعجزة ثلاثئة سنة ، وعادت ارواحهم لتجد اجسادهم على اصلح ما تكون الاجساد لمودة الروح ، وقد استوفوا قسطهم الاومي من نوم عميق وراحة سابعة ، ووجدوا انفسهم في عالم جديد - امريكا - مثلاً - كل ما فيه يقري بالثبوت والاستمتاع !

ترى ، ماذا عسى ان يقول قدامي المصريين لو علموا ان جلالة الملك خوفو لو عادت اليه الروح انقلب على عقبيه ليختفي في جوف الهرم الاكبر .. مضرباً عن الحياة .. مصرأ على الاضراب مما برحت به آلام الجوع .. لأنه وجد طفله قد توفي منذ دهر داهر .. ليعلمنا كيف يصارع قدام المصريين الزمن ؟ إذن لأعلموا عن تحنيط مثل هذا الأبله .. وإذن لسألوا الناس

قبل تحنيطهم عما سيفعلون بانفسهم متى عادوا الى الحياة ، فلا يحنطون منهم إلا من يلحف بكل آلهة النيل انه لن يصارع الزمن .. على طريقة توفيق الحكيم . ولكن قدامي المصريين لم يحنط لهم ، والحق معهم ، ان هنالك من الناس من يكون تركيب عقله معكوساً على هذا النمط . ومن اجل هذا كانوا يحنطون الناس بلا سؤال ولا جواب .

ولكننا وجدنا اهل الكهف يصارعون حقاً ، مهما كانت صراعمهم خائراً . فأني شيء صارعوا يا ترى وقد رأينا انهم لم يصارعوا الزمن ؟ صارعوا البيئة ، وهذا كل ما في الامر . شأنهم شأن اي انسان ينفيه موسوليني مثلاً من روما ويأمر بنقله بالطائرة وهو نائم الى باريس ، فينتحر حالما يستيقظ ليروي ان باريس غير روما ، وان ناسها غير ناسها .

اما الذي وجدته يصارع الزمن على غرار قدامي المصريين فهو سليلهم الاستاذ توفيق الحكيم . يختار مسرحياته المواضيع الخالدة ، التي لا يمكن ان يكف البشر عن التفكير فيها ، لكي يستعير من خلودها خلوداً لنفسه ، كالذي ينقر اسمه على ابي الهول ليقراه كل من يجيء من اقاصي الارض ليرى ابا الهول ، ما عاش ابو الهول . وقد اختار الزمن مسرحيته هذه يحنطها به عسى ان يربها كل من يستعرض ما قيل في الزمن . ولكن الزمن لا ينخدع ، ولهذا اخشى إذا خرجت هذه المسرحية من كهف الزمن بعد قرون ، ألا يكون من صراعها الزمن الا ما كان من صراع ابطالها .

ولا كذلك شكسبير . انه ما كان يختار الا المألوف البسيط من الحكايات ، فينفخ فيها من روحه روحاً فاذا هي حية تسعى . ان مضماره النفس الانسانية لا ابو الهول ، وما كان ابو الهول بأخلد من الانسان ، ولا كان تحليل نفسه باصعب من تحليل نفسه . وهكذا كان شكسبير يعبر موضوعاته - ولا يستعير منها - خلوداً من عبقريته يناطح الزمان .. كأبي الهول .

التكليف

ويقول الاستاذ توفيق الحكيم انه مطلوب من المؤلف المسرحي « ان يخلق اشخاصاً دون ان تقع عليهم نقطة من مداد قلمه تفضح وجوده او تكشف ان خلف مخلوقاته مؤلفاً .. حديثهم وحده فيما بينهم هو الذي يجب ان يخلقهم .. »

اما في هذه المسرحية فلست تجد غير المؤلف ، في كل حديثهم الذي يجريه فيما بينهم ، وفي كل تصرفاتهم التي يصدرها عنهم . ما هم الا اشخاص لهم اساليبهم في الكلام ، وانما هو

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣ .

الاستاذ توفيق الحكيم يتحدث بأسلوبه على لسانهم ويجرحهم كما يشاء كأنهم الدمى يجرحها اللاعب بالخيوط فتأتي حركاتها جامدة متكلفة ، واصواتها متشابهة ، واسلوبها واحداً . هذا الاسلوب المتحدق المتأطر يصلح ان يكون حواراً بين اديبين او فيلسوفين متظرفين لابين اشخاص الرواية كلهم .

اما التصرفات والافكار فقد رأينا افاغيب المؤلف في توجيهها ، وفرضها على مخلوقاته المنكوبة . حتى الكلب التعس كان يعبر عن افكار المؤلف الحكيم ويفكر بعقليته ويتصرف بإيعازة .

جلست في احدى التمثيليات في الصف الأول فأذاني صوت الملقن أسمع القول منه أحياناً قبل ان اسمه من المؤلف . اما الاستاذ توفيق الحكيم فليس ملقناً ، ولكنه مرقص دمي يتكلم هو فلا تسمع صوت دماغه أصلاً ، لأنها لا صوت لها .. ولا ترى إلا حركاته ، او تحركاته ، لأن دماغه لا ارادة لها ولا حركة .

ولقد شأنت ارادته ان يحشو هذه المسرحية بافكاره ، ولغيره ، عن الدين والقديسين واساطير الشعوب والاحلام والزمان .. منها ما هياه قبل كتابة القصة ومنها ما خطر له اثناء كتابتها ، فوزع ذلك كله على مخلوقاته يسردونه في حوارهم . فهذا الخالق - لا سبحانه ولا تعال - لا يملك اشخاصاً يعبر لهم عن انفسهم بالكلام والافكار ، وإنما هو يملك كلاماً وافكاراً يعبر عنها باشخاص .

والشواهد كثيرة . من ذلك ان الراعي يخبر صاحبيه كيف دخل الايمان قلبه - بأسلوب فيه من التعابير الشعرية والاشارات الفلسفية ما لا يتأتى مثله لأحد من الرعاة ، ولا لمظم القراء . وهنا لم تقع قطرة من المداد تفضح وجود المؤلف الخالق وراء هذا الشخص المخلوق ، وإنما اندلقت عليه المحبرة كما فيما يبدو . وباطالما اندلقت المحبرة في هذه المسرحية .

وما دمنا نتحدث عن الراعي فلنلاحظ انه هو الذي يحاول ان يؤول بقاءهم في الكهف احياء كل هذا الامد الطويل تأويلاً علمياً دينياً معاً . وأما الوزيران والكلب فلم ينتجهم المؤلف نصيباً من هذه المفخرة .

كذلك جعل المؤلف يميلخا الراعي هذا هو « الذي ما انفك يتأمل ما حوالبه بعين زائفة مرتاعة » عند دخول القديسين قصر الملك على اثر خروجهم من الكهف ، ويهمس لمرنوش : « انظر الى ملابس هذا الملك وهؤلاء الجند ! في أي بلد نحن ؟ .. ان المفروض ان الوزيرين هما اللذان يلحظان ما طرأ على ملابس الملك وهؤلاء الجند من التغيير ويتمجبان له ، وأما يميلخا فلا يحق له أصلاً ان يتأمل ما حوالبه في القصر بعين زائفة مرتاعة إلا بمعنى انه يراه اول مرة ، لأن المفروض انه لم ير القصر في حياته قبل ذلك قط ، وامله لم ير الملك إلا من بعيد .

كذلك يزعم لنا المؤلف الحكيم ان يميلخا هذا هو اول من يكتشف ان المدينة قد تغيرت والمفروض فيه انه لا يشاها إلا لماماً . اما مرنوش (الوزير) الذي مضى الى بيته فوجد مكانه قد صار سوقاً للسلاح فلا يدرك في مساء اليوم التالي ما ادركه الراعي في ربيع ساعة من انهم ناموا ثلاثة قرون .

واليك طرازاً آخر من التكلف يعان في المؤلف وطأته في

ظهور اشخاصه واختفائهم . فهم ليسوا بالأناسي لهم من المصالح والدوافع ما يدعوهم الى دخول المسرح او مغادرته في الوقت الذي تقرره المناسبة ، وإنما هو المؤلف يقدر عليهم الوقت فيدخلهم ويخرجهم حين يشاء لهم ان يشتبكوا في الحوار ، او يفرغوا منه .

من ذلك انه يفتح الفصل الثاني هكذا :

الاميرة : (متسائلة) أين مؤدبي غالباس ؟ لم أره هذا النهار . (يبدو المؤدب غالباس مقبلاً على عجل ..)

هكذا ، هكذا ، لا تكاد تسأل عنه حتى يبدو مقبلاً « على

عجل » ! ثم هل لحظت كلمة : « مؤدبي » ؟ اني لا اعتقد ان الناس يقول قائلهم : اين « مؤدبي » غالباس . او « زميلي » احمد ، او ابي محمود ؟ ولكن الاستاذ المؤلف الحكيم اراد ان يخبرنا في مطلع الفصل ، و « على عجل » ، ان غالباس الذي ما كادت تتم سؤالها عنه حتى ولج المسرح كأنه كان يتسمع وراء الباب ليلتحم معها في الحوار - هو مؤدبها .

وفي الفصل الثالث ما يكاد غالباس هذا يبارح مشلينيا فيتروكه وحده حتى يدخل مرنوش ليستأنف مشلينيا معه الحوار .. وما يكاد مرنوش يخرج حتى تدخل بريسكا فتجمل محله في الحوار .. وفي نفس اللحظة التي يخرج فيها مشلينيا يعود غالباس حتى ليصطدم به كما يعترف المؤلف ... فاذا فرغ غالباس من الحوار وانصرف عاد مشلينيا كأنه كان ينتظر خروجه ليبدخل .

.. كأنما لا يجوز لأحدهم ان يدخل المسرح قبل مبارحة الآخر ، وكأنما لا يجوز له الكلام في حضور الآخر ، وكأنما لا يباح للمؤلف ان يدير الحوار بين اكثر من شخصين اثنين . لماذا لم يدخلوا قبل ان دخلوا ببضع دقائق ، أو بعد ان دخلوا ببضع دقائق ؟ لا ادري .. ان المؤلف لا يعطينا سبباً ، أي انه يزعم لنا ان ذلك حدث بالصدفة . ولو قد تكررت هذه الصدفة مرة أو مرتين لتفاضينا عنها ، ولكن هذه الامثلة التي رأيناها تقع كلها في الفصل الثالث ، متلاحقة بعضها وراء بعض . فهؤلاء ليسوا اشخاصاً يصورهم المؤلف من الحياة ، وإنما هم يمثلون يقفون كالحشب المستددة وراء الحجب (الكواليس) ، فكلما جاء دور احدهم دفعه المؤلف الى وسط المسرح ليؤدي دوره ويقول الالفاظ التي يضعها في فمه . وما اظن إلا انك الآن تحس بهم واقفين وراء الابواب ينتظر كل منهم دوره . أتريد مزيداً من امثلة التكلف في هذه المسرحية ؟

حين يكتشف الناس الكهف في الفصل الاول ويقتحمونه على القديسين فيجدونه مظلماً يصيح بعضهم : احضروا المشاعل .. ثم .. لا تقضي لحظة حتى يشع في داخل الكهف ضوء ، ثم يشتد اللقط ، ويدخل الناس هاجمين ، وفي ايديهم المشاعل « .. اجل ، لا تقضي لحظة حتى تنهياً المشاعل . فن اين جاؤوا بها .. في البيداء .. في لحظة .. لينتروا الكهف البعيد عن المدينة ؟ أما اذا اجاب الاستاذ توفيق الحكيم على تساؤلنا هذا بقوله ان المشاعل يجب ان تكون مهياة في المسرح وراء الحجب قبل بده التمثيل .. فما علينا إلا ان نعترف بأنه افحمننا .

ومن مظاهر التكلف ايضاً ان الكاب القديس لا يرافق زملاءه ولا يظهر معهم إلا في الفصل الاول في الكهف حين يصحو النيام من رقدتهم الطولي ، ويكون هو آخرهم نهوضاً .. والفروض ان ينهض قباهم ويوقظهم بنباحه . والمعقول ان يكون ابدأ معهم . ويظهر لا سيما مع صاحبه الراعي حيثما ظهر في كل فصول الرواية .

وفي مكان آخر يقول مرنوش حزيناً « في صوت خطير هائل » : نعم !.. فهلا خبرتنا ايها القارئ العزيز كيف يكون هذا الصوت الخطير الهائل تقال به كلمة « نعم » ؟ الا ترى ان الممثل المسكين سيحار كيف يؤدي هذه المهمة على الوجه الذي يفرضه المؤلف ؟

ويمتليء الفصل الثالث بعبارات يقولها الفرسان الثلاثة تدل حيناً على انهم فهموا انهم ناموا ثلاثة قرون واحياناً على انهم لم يفهموا .. ويعيدون ذلك في تغاب عجيب ، وخلط مبالغ فيه ، وتكرار بمل ، ولتّ وعجن ، وتناقض مؤذٍ حتى لتجد في الجملة الواحدة كل كلمة تلعن اختها .. على نحو لا يمكن ان يمثل الواقع . وانا اعيد نفسي ان ارزأك بذكر الشواهد وانا انتقد كثيرتها .

ان امثال هذا التكلف او الخطأ او ضعف الفن أو ما تشاء ان تسميه ، كثير جداً في هذه المسرحية ، ولو فرض علينا احصاؤه لملنا واملناك . فلنكفّ إذن عن التسكع بين فصول المسرحية ونحصى بعض ما جاء منه في الفصل الاخير فقط . واما بقية الفصول فليدرسها القارئ وحده ، ويتسلى بتصيد ما ينتشر في نواحيها من هذه الهفوات .

وخلاصة هذا الفصل الاخير ، ان القديسين بعد عودتهم الى الكهف لبثوا فيه شهراً ثم ماتوا جوعاً . وعندها تأتي بريسكا (وهي حفيذة بريسكا بنت دقيانوس التي كان يحبها مشلينيا ، وهي تشبهها كل الشبه حتى ظنناها لها) .. تأتي لتدفن نفسها معهم لأنها احبت مشلينيا حبيب جدتها . ويحاول غالبا ان يثنى عنها عن عزمها فلما يرى إصرارها يعدها بكتان امرها عن الملك ابيها . ثم يأتي الملك ويأمر بسد باب الكهف وهي فيه

بعد وضع ثلاثة معاول في داخل الكهف لكي يستعين بها القديسون على فتح الباب إذا ما عادت اليهم الحياة ثانية في هذه الدنيا . ولا تحسبن اني سأحصي كل الهفوات في هذا الفصل فإن الامر اطول مما تظن ، وحسبنا الآن ما بلغنا في هذا البحث من اطالة .. ولكني سأكتفي بالأهم الأهم .

يبدأ هذا الفصل بعد ان يكون قد انقضى الشهر على عودتهم الى الكهف واضرابهم عن الحياة . فهم في ساعة النزح ، يموت اولاً يميلخا ، لانه اضعفهم بنية بل المتوقع ان يكون الرعاة اقوى من اصحاب المعالي الوزراء جسماً واقدر على الجوع احتمالاً ، ولكن لسبب لا نعرفه يموت اولاً ، ثم يلحق به مرنوش ، ثم الكلب ، ثم مشلينيا . ولكنهم على كل حال يموتون كلهم في ساعة واحدة ، فهم متاثلون في حالتهم الجثائية وجلدهم على الجوع والظلمة ، ولم يكتشف لطف حتى اليوم كيف يكون ذلك .

وفي ساعة النزح هذه يتحدث الجماعة عن يقظتهم بعد نومهم المبهودة ، ويتذكرون مشاهداتهم في المدينة فيما بين خروجهم من الكهف وعودتهم اليه ، وعن فلسفة الحلم واليقظة ، وعن حبيبة مشلينيا واهل مرنوش ، وعن كنه الزمن ، وهل نحن .. (اي هم) احلام الزمن ام هو الزمن حلنا ؟ وهل نحن نحو الزمن ام هو الزمن يحونا ؟ .. يتحدثون في هذا كله على نحو ينبثق بأنهم لم يتحدثوا فيه من قبل . فليت شعر الاستاذ توفيق الحكيم ، اي شيء كانوا يصنعون إذن طيلة هذا الشهر الذي انطرحوا فيه في قاع الغار وقد استلقوا على قفاهم من شدة .. الجوع ؟ اهو الفن الذي درسه الاستاذ ووقف الساعات الطوال امام نصوصه .. الخ .. هو الذي اوحى اليه ان ساعة النزح اصلح وقت للحوار ؟ والحوار في هذه المواضيع العريضة ..؟ اني لم اجسد تعليلاً مقبولاً لموتهم في ساعة واحدة إلا ان يكون هذا الحديث الفلسفي العسير هو الذي اجهز عليهم .. لولا ان قطعنا الاعجم قد مات معهم في تلك الساعة مع انه بمنجاة من شر الحوار ، بريء من خزعات الفلسفة .

في هذا الفصل ايضاً يقف الممثلون على عادتهم خلف الحجب بانتظار ادوارهم . فبعد ان يموت كل من مرنوش ويميلخا والكلب تدخل بريسكا مع مؤدبها غالبا حين يكون مشلينيا حبيبها في الرمتق الاخير ، وهي تظن انهم قد ماتوا من زمان . لم لم تدخل قبل خمس دقائق ؟ الجواب : لكيلا يشترك الآخرون في الحوار . لم لم تدخل بعد خمس دقائق ؟ الجواب : لكي تتبادل مع مشلينيا بضع كلمات قبل ان تفيض روحه . ولكي لا يشترك في الحوار ثالث يبعد المؤلف غالبا على العادة بان تطلب اليه بريسكا ان يأتيها بطعام لانقاذ حبيبها المحضر ، كأنها في قصر ابيها والطعام موجود في الغرفة المجاورة . وعلى العادة ايضاً لا يعود المؤدب بوعاء لب « سرقه من احد البنائين » .. الا بعد ان تكون روح مشلينيا قد فاضت ، حسب الحطة المرسومة ، وانتهى دوره في الحوار ، ليأخذ المؤدب مكانه فيه . وهنا تزعم الاميرة لمؤدبها انها ستلقى حبيبها « في جيل آخر حيث لا فاصل بيننا . » ولا يسألها

الأمر الذي لا اغفره للاستاذ الحكيم ابد الآبدن. حتى جنايته على الكلب، التي أتارت حفيظتي عليه آنفاً ، لم تبلغ هذا المبلغ من الاجرام والوحشية . ان الاستاذ توفيق الحكيم ليطوقني بمنة لا انسائها له اذا هو قبل شفاعتي وشفاعة من يؤيدني من القراء ، في هذه الفتاة البريئة . فيصدر طبعة جديدة من مسرحيته هذه يرينا فيها ان الملك ظل يعذب ذلك المؤدب الحمار يوماً او يومين حتى يعترف له بالحقيقة ، فيهرع الى الكهف لينقذ لنا بريسكا . ولكنه سيجدها قد جنت من مصاحبة الجثث ورؤية الاشباح ، واحرهابه . وانا والقراء من ورأئي لانرضى لهذه الكعاب الحلوة مثل هذا المصير الفاجع ، فقد كفانا انتحار ثلاثة قديسين و كلب بريء .

ليطلق المؤلف لنا فتاتنا .. فليتركها تتصرف على سجيتهها لا على سجيته ، وتستعمل شيئاً مما اتصفت به من الفطنة وسلامة الطبع والذوق فلا تقدم على الانتحار على هذه الطريقة الجنونية المنكرة باختيارها ، بل تحت تأثير رؤيا كابوسية او هواتف شيطانية ، ثم تثوب الى ذكائها بعد سد الغار ، فتتناول احد هذه المعاول وتفتح الباب ، لتحب مشلينيا خارج الكهف .. او لا تحبه .. فهذا لا يهمنا .

الكل في واحد

رأينا إذن ان حظ هذه المسرحية من التكلف كثير . وأعني بالتكلف ما يفرضه المؤلف فرضاً على اشخاصه وقرائه من اقوال واعمال لا تنسجم مع الطبع الانساني او الذوق الفني . وهذا التكلف على انواع كما رأينا . وها هنا منها التحكم في اشخاصه بالجملة كأنه عريف (اونبائي) متمسف يقود جنوداً له تحت امرته .. على طريقة « الكل في واحد » التي لم يحسن تطبيقها في « عودة الروح » كما لم احسن عرضها فيما تقدم بنا من البحث . ولا بأس من عودة مختصرة اليها الآن توضح غرضي من التنويه بها . وقف العريف من جنوده الثلاثة ذات يوم موقف الأمر ، فنفتح صدره ورفع عقيرته يصبح بهم صيحة مفرية :

«أمونا بالله حتى الموت ! .. فأمونا بالله حتى الموت . وهذا لا غرابة فيه . ثم صاح بهم : « ادخلوا الكهف ! .. فدخلوا الكهف . وهذا لا ضير منه . وكاد ان يفتح فمه ليلقي اليهم ايمازه الثالث حين لحظ ان الكلب قطعيراً قد دخل معهم ، فتحير في امره وهم ان يطرده أول الامر ، ثم قال في نفسه : فايكن ! صاح بهم : « ناموا ثلاثئة عام .. ومعكم هذا الكلب ! .. فناموا ثلاثئة عام .. ومعهم هذا الكلب .

ثم صاح بهم بعد ان انقضت القرون الثلاثة : استيقظوا جميعاً في ساعة واحدة ، وبلا سبب مفهوم ! .. فاستيقظوا جميعاً في ساعة واحدة ، وبلا سبب مفهوم .

ثم صاح بهم : « انسوا الدين الذي من اجله كان ما كان ! .. فسوا الدين الذي من اجله كان ما كان . ولم يفهم الكلب شيئاً ، لانه كان غائباً

المؤدب أتراها تعني انها سوف تلقاه يوم البعث . فعندئذ تبعث جدتها ايضاً ، وهي بريسكا الاصلية ، فتكون احق بمشلينيا معها بعد ان وقت له وانتظرت اوبته اليها حتى ماتت عذراء في سن الخمسين . ام تراها تعني العودة ثانية الى هذه الحياة الدنيا في « جيل آخر » باعتبار انها هي بريسكا الاصلية قد عادت ثانية بروحها في جسد آخر لتتلاقى حبيبها الذي عاد بجسده وروحه ، ونصه وفصه . فعندئذ يكون الاستاذ الحكيم قد كلفنا ان نؤمن بالاضافة الى كل اساطيره في هذه المسرحية وفي غيرها من مقالاته ومسرحياته - بتناسخ الارواح ايضاً على هذا النحو المضطرب المشوش . لم يسألها مؤدبها شيئاً عن هذا ولا ذاك ، وانما يقول لها : « صدقت .. صدقت يا مولاتي ، اني اعجب بإيمانك هذا » .. لانه غبي احق كما افهمنا الاستاذ توفيق في مناسبات عدة . ولا كذلك القراء ..

واعجب من هذا ان بريسكا تحكي لمؤدبها حكاية .. هي حكاية اوراشيا .. فتستغرق ما يقرب من ست صفحات . ووجه العجب هنا هو اولاً انها تحكي الحكاية في الكهف ، بين الجثث .. وثانياً انها يتوقعان بين دقيقة واخرى وصول الملك الذي تخشى اقتضاح امرها لديه .. وثالثاً ان المؤدب غالياس كان يعرف بعض هذه القصة ، وان هذه الصفحات التي تربو على الخمس كانت بالنسبة له « تماماً للفائدة » ليس الا .. ورابعاً ان هذه الحكاية ليست ضرورية ولا علاقة لها بموقفها وعزمها على الانتحار اصلاً ، وانما اراد الاستاذ توفيق الحكيم ان يخبرنا بان اسطورة البعث بعد احقاب من الدهر تعرفها شعوب اخرى . ويقول غالياس لتلميذته الاميرة حين يودعها انها قديسة ، فتذكره بانها امرأة احبت وكفى . ولكن ، سواء أكانت امرأة احبت ام قديسة لم تحب .. فاني لم افهم حتى الساعة لأي سبب انتحرت هي الاخرى .. وحبست نفسها في جوف الكهف .. مع اربع جثث .. ستنتفخ وشيكا .. وبسطع ريجها الحثيث السام في ارجاء الغار .. الذي سيمج بالدود والحشرات . أمن المعقول ان تختار لنفسها هذا الجو الفظيع لتموت فيه بالتدريج ؟ لقد علمنا ان رايهم الكلب حنق على الكلاب لانها لم تنظر اليه كما ينبغي .. فما بال خامستهم هذه تقحم نفسها في هذه السخافة الفاجعة ، لغير سبب ؟ الحق ان هذه الفتاة الجميلة الذكية لا ذنب لها . ولكن المؤلف هو الذي جنى عليها .

أريد المؤلف ان يقول انها امرأة احبت ، وكفى ؟ إذن فليقعدها في بيتها ، ليميتها في الخمسين او الستين من عمرها ، في جهو الاعمدة .. عذراء .. كما فعل مجديتها . أريدها ان تنتحر كما انتحرت سواها ؟ إذن فلينتحرها في قصرها ، او حتى هنا في الكهف ، ولكن يقتلها قتل سريعاً مريحة لها ولنا .

اما ان يدفن هذه الصبية الراقدة على هذا النحو الاجرامي مع هذه الجيف الاربعة وما يرافقها من اشباح وعفاريت ومصائب ، لتموت في هذا المكان المظلم موتاً بطيئاً خيفاً تشعمر لهوله ابدان الصناديد من الرجال ، فذلك

النافذة المُغلقة

افتحوها تدخل الشمس إليكم والهواء
افتحوها ... وانظروا للأرض ، وارنوا للسماء
افتحوها ... فلقد أودى بكم طول البقاء
في مكان ... هو قبر من قبور الفقراء !
وظلام لم تمزق ستره كف الضياء !
وهواء يحمل الموت على متن الوباء !
فعميت عن ضياء الله ... في هذا الفضاء !
وتفشى الداء فيكم ... بل تفشى كل داء !
وجهلتكم كل ما يعلم غير الجهلاء !
وشقيتكم حيث أنتم ... ورضيتكم بالشقاء !
وحصدتكم ما جنى الظلم ... وأنتم ابرياء !
فافتحوها ... يفتح الله لكم باب الرجاء
وانظروا الطير التي تمضي الى حيث تشاء
وتغني مثلما المهمما الله الغناء
وارقبوا الشمس ... ففيها كل اسرار البقاء
إنها تسعى من الصبح إلى وقت المساء
تنتثر الضوء على الكون حياة ونماء
ولديها كل من فيه وما فيه سواء
شريعة العدل التي يعرض عنها « العقلاء ! »
شريعة العدل التي يدعو اليها الحكماء
ويغني باسمها الشعر ، ويشدو الشعراء
وجلاها كل دين عرضته الأنبياء
واشترها كل جيل ... بدماء الشهداء
فهي لا تمتنع ... بل تؤخذ أخذ الأقوياء
وحياة الظلم لا تحمد إلا الضعفاء
وسلاح الظلم لا يُرهب غير الجبناء
لا تقولوا : ما الذي تعني ، ففي المعنى خفاء ؟
أنا أعني كل شيء ... فافهموا يا اذكباء !
وأناديكم جميعاً ... فاستجيبوا للنداء
القاهرة ابراهيم محمد نجا

يحرص الغم حين وقعت واقعة الدين ، فهز ذيله هزة حيرة واعتذار .
ثم صاح بهم : « اخرجوا من الكهف ، كل الى شأنه الديوي ! » ..
فخرجوا من الكهف ، كل الى شأنه الديوي .
ثم خرج وراءهم الى باب الغار وصاح بهم : « صارعوا الزمن ! » ..
ولكنهم كانوا قد ابتمدوا فلم يسموا صوته . فسبقهم الى المدينة يتواطأ عليهم
مع الزمن ، فوجد الزمن يرحب بهم ، ففى كاسف البال وحده يفسد عليهم
امانيهم ويسد الطريق بوجههم ، فوقفوا حائرين ينتظرون الايماس من
(الاونباشي) المهيمن . فصاح بهم عندئذ طبقاً لخطته المرسومة : « صارعوا
الزمن بالفرار من الزمن ! » .. فصارعوا الزمن بالفرار من الزمن .
ثم صاح بهم : « انتحروا كلهم .. بالاختباء في الكهف والاضراب عن
الطعام والشراب .. والحوار ايضاً .. شهراً كاملاً ! » .. فانتحروا كلهم .. بالاختباء
في الكهف والاضراب عن الطعام والشراب .. والحوار ايضاً .. شهراً كاملاً .
ثم صاح بهم : « اقضوا نجبتكم .. رجالاً وكلاباً .. في يوم واحد وساعة
واحدة ، بعد ان تتحاوروا - عدا الكلاب - وتذكروا ما اعرف أنا
المؤلف من آراء ونظريات في الاحلام والزمان .. الخ .. ولعنة الله على
نظريات الطب وعلم النفس والذوق الفني ! » .. فقضوا نجبتهم كلهم .. رجالاً
وكلاباً .. في يوم واحد ، وساعة واحدة ، بعد ان تحاوروا - عدا الكلاب -
في الاحلام والزمان .. الخ .. ورحمة الله على نظريات الطب وعلم النفس ،
والذوق الفني .

صدق أو لا تصدق :

يعززي القارى . بالرغم مما ذكرت لك وما لم اذكر لك
من عيوب « اهل الكهف » فاني لا انسى انها اول مسرحية
اخرجها الاستاذ توفيق الحكيم بعد عودته من فرنسا ، ولا بد
من العثرات والهفوات في بداية التأليف الى ان يستقيم الطريق ،
وتستوي الطريقة ، ويتمكن القلم ويتعين الاتجاه . وهي مع
ذلك اول مسرحية من نوعها في لغة العرب ، وان للمؤلف فيها
بالرغم من هذه العثرات والهفوات لتجليات شاهقة تثير الاعجاب ،
ولفتات فنية بارعة تبلغ الذروة من الابداع والاحسان . ولقد
بوغت بها النقاد والادباء يوم صدورها فأجمعوا على اطرائها والاعجاب
بها ، وهي اهل لذلك .. حتى لقد ذهبوا عن تمحيصها ونقدتها على
اساس من العلم والمنطق مكين . وحسب الاستاذ توفيق الحكيم
فخراً انه بهذه المسرحية وغيرها من مسرحياته قد ساهم مساهمة
محمودة فعالة في بناء اساس الفن المسرحي لأبناء العربية .
فلئن نقدت هذه المسرحية اليوم هذا النقد الذي اقتضت
فيه على ذكر السننات دون الحسنات فلأن النقاد قد اشبعوها
مديحاً خلال عشرين عاماً من ذكر الحسنات وحدها ، وأرى
الآن ان من حق المسرحية ومؤلفها وقراءها .. ان تُنقد .
واني لعمر الحق لعارف لمكانها معترف بفضلها ، واني على كل
حال اري ان مؤلفها فنان عظيم وارى له عندي حظاً وافراً
من اعجاب واكبار .
فصدق او لا تصدق .
عبدالحق فاضل